أضواء على فهرست المخطوطات العربية في أفريقية لعثمـــان البيلـــي

إبراهيم الزين صغيرون

أستاذ مساعد بقسم التاريخ

كلية العلوم الاجتماعية

ـ جامعة الامام محمد بن سعود

البيلي، عثمان سيد أحمد / فهرست المخطوطات العربية. مشروع بحث تاريخ شمال نيجريا. ـ الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٨٤م، ٢٠٠ ص

تمهيد: مما لاشك فيه أن هذا الفهرست اسهام رائد ومجهود طيب يستحق عناية الباحثين بصفة عامة. وقد قام بإعداده والتقديم له عثمان سيد أحمد البيلي أستاذ التاريخ الاسلامي بجامعتي الخرطوم وأحمد بلو وعميد كلية الآداب بجامعة الخرطوم سابقاً ووزير التربية والتوجيه بجمهورية السودان حالياً. وله عدد من المؤلفات والبحوث في مجالات التاريخ الاسلامي والدراسات الأفريقية(١).

وقد كان المؤلف مع نخبة من زملائه بقسم التاريخ بجامعة أحمد بـلو قد أشرفوا وشاركوا في مشروع بحث تاريخ شمال نيجريا حيث أولوا عنايتهم الفائقة أمر المخطوطات العربية في نيجريا عامة والعمل على جمعها وتصنيفها وتنسيقها وحفظها ودراستها وقد كان هذا الفهرست جزءاً قليلاً من ثمار جهودهم القيمة في هذا الميدان(١)

وقد اهتمت دار جامعة الخرطوم للنشر إسهاماً منها في بث الوعي الفكري بالتراث الاسلامي الأفريقي بنشر الكتاب في غرة رمضان ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ ويقع في حوالى ٢٠٠ صفحة من القطع الكبير. وتعميماً للفائدة فقد قام المؤلف بإعداد الفهرست بالأبجديتين العربية واللاتينية «حتى يتسنى لقراء العربية عامة وأهل هذا التراث خاصة والباحثين فيه الإطلاع عليه والإستعانة به»(٣) لذا فقد شمل القسم العربي من الفهرست الجزء الأول من الكتاب (صفحات ١ ـ ١١٩) والقسم اللاتيني الجزء الثاني (صفحات ١ ـ ٨١).

عرض الكتاب:

وضع المؤلف منهجاً علمياً دقيقاً للفهرست وقد برزت معالمه في ثبت المحتويات كالآتي:

ـ كشاف أسماء الأماكن المذكورة في أسماء المؤلفات ١١٧

في تقديمه لهذا «الفهرست» تناول المؤلف بالشرح جذور الثقافة العربية الاسلامية في أفريقية الغربية ورجوعها إلى القرن الثامن الميلادي وكيف انتشر الدين ولغة القرآن وحضارة الاسلام وكيف أخذ ذلك الاشعاع الحضاري القوي الباهر يمتد مع الزمن إلى ما يتاخم العالم الاسلامي من عوالم فيغمرها بنوره الساطع وذلك بفضل قوته الحضارية والاقتصادية والمداخل المختلفة التي كان ينفذ بها إلى تلك العوالم وتنفذ منها إليه مع التجارة والرحلة والهجرة وغيرها من وسائل الانتقال والتأثير والاتصال.

ومن الحقائق التاريخية الجديرة بالتسجيل والاعتبار التي أشار إليها المؤلف في هذا السفر القيم ذلك أنه في الوقت الذي أفل فيه نجم الاسلام ودولته في أوربا في القرون الوسطى وتفككت قواه في المغرب والمشرق قد ظل نجم الاسلام في صعود وتألق في تلك الفترة في أواسط أفريقية وشرقها ووسطها وغربها فيما عرف بعد ببلاد السودان وشهد هذا الاقليم قيام الممالك الاسلامية وتركزت فيه دعائم الثقافة العربية الاسلامية في العديد من الممالك وفي أوساط مختلف الجماعات، في غانا ومالي وفي برنو وفي سودان النوبة وفي بلاد التكرور.

أورد المؤلف في تقديمه لهذا الفهرست والمخطوطات التي أثبتت فيه بأن هذا يدل دلالة واضحة بأن اللغة العربية المعبرة عن روح اسلامي عميق وأصيل قد كانت لغة الدين والعلم والدولة أيام الخلافة «العثمانية الصكتية» والتي كان مركزها «ولاية صكت» الحالية الواقعة في الشمال الغربي من جمهورية نيجريا الفدرالية. تلك الخلافة التي شملت جل شمال نيجريا خلا بلاد البرنو وامتد بها الزمان طيلة قرن (١٨٠٤ ـ ١٩٠٣م).

وقد شمل «الفهرست» بلاد البرنو (كانم ـ برنو) والتي كانت سابقة في هذا المضمار حيث قامت فيها الدولة «السيفية» واعقبتها الدولة الكانمية المعاصرة للدولة العثمانية حتى جاء الاستعمار ليفرض نفوذه الاداري والثقافي على الدولتين منذ مطلع القرن العشرين. وعلى الرغم من ذلك يذكر المؤلف بأن الدراسات القرآنية والثقافة العربية الاسلامية بسائر علومها وفنونها قد ظلت مستمرة وصلات كل هذه الرقعة الطويلة العريضة من أفريقية متصلة ببلاد العالم الاسلامي الأخرى في شمال أفريقية كلها ومصر والحجاز طيلة هذه الحقب من الزمان.

ويــعنى المؤلف في تقديمه لهذا «الفهرست» ويضيف بأن ازدهار اللغة العربية قد أدى إلى اسهام الكثيرين بالتأليف بها من رجالات الدولة والعلم والدين[٤] اذ تجمع مع الزمن رصيد كبير من المؤلفات باللغة العربية وبعض اللغات المحلية التي استعملت فيها الحروف العربية للكتابة مثل لغة الفلاني والهوسا والكنوري والنفي والتي تأثرت بالاسلام والعربية في ألفاظها ومضموناتها وتراكيبها الشعرية والنثرية. لذلك قد شمل «الفهرست» المخطوطات باللغة العربية واللغات الأخرى التي كتبت بالحروف العربية. وقد احتوى الفهرست كل المؤلفات ما عدا الرسائل الديوانية باستثناء تلك التي اعتبرت مهمة بالنسبة للجهاد العثماني الصكتي والمتعلقة بالعلاقات الإقليمية الخارجية في تلك الفترة الهامة.

وسمة أخرى جديرة بالتسجيل بالنسبة لهذا «الفهرست» ما أشار له المؤلف بأن المخطوطات المثبتة لا تقتصر على المؤلفات المحلية فقط بل تضمنت بعض مؤلفات العلماء المسلمين والعرب لما لها من أثر على العلم والتأليف في نيجريا[٥]. وفي ختام تقديمه لهذا «الفهرست» يلخص لنا عثمان سيد أحمد أهمية هذا التراث والآمال المرجوة منه بالنسبة للدارسين والباحثين حيث يقول:

«..... والمؤلفات المحلية المثبتة هنا جديرة بالدراسة والإهتمام لا كمصادر للدراسات الانسانية المختلفة فحسب بل وفي حد ذاتها كأدب أصيل وعريق ومتنوع وعميق لا يمكن اغفاله أو اهماله في فهم الشخصية النيجرية الأصيلة. ولهذا فان المراد من هذا «الفهرست» أن يكون صورة في شكل باقة عناوين لتلك الثقافة العربية الافريقية.

والأمل معقود أن يلفت هذا «الفهرست» الأنظار إلى أعمال «مشروع بحث تاريخ شمال نيجريا» بقسم التاريخ بجامعة أحمد بلو واهتمامه بجمع المخطوطات وحفظها وتنسيقها وتسهيل الاطلاع عليها والاستفادة منها بالدراسة والتحقيق والنشر

والترجمة متى ما وُجد إلى ذلك سبيل...»[٦].

وفي نهاية التقديم (صفحات ٤ ـ ٥) قد أحسن المؤلف بشرح ترتيب «الفهرست» والمخطوطات والطريقة التي أتبعت في الترتيب على الأبجدية وفق أسماء المؤلفين وتتبعهم أسماء مؤلفاتهم المخطوطة ثم يلي ذلك عدد الصفحات والموضع الذي يشار إليه بأرقام تشير إلى السجلات أو المظاريف التي وضعت بداخلها المخطوطات أو المجلدات التي غالباً ما تنسب لأسماء الأشخاص الذين قاموا بجمعها وقد أهتم المؤلف كذلك بشرح الإختصارات التي استعملت في «الفهرست» مما ييسر على الباحث الاستفادة مما ورد فيه ولعل من أبرز الفوائد التي تضمنها «فهرست المخطوطات العربية» المقدمة التي أفردها المؤلف ليحدثنا عن:

اللغة العربية والحرف العربي في غربي أفريقية (الصفحات ٦ ـ ١٥) فهي تلقى الضوء بصورة علمية دقيقة على شتى الوسائل والسبل والظروف الاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية التي أسهمت في مدى انتشار اللغة العربية والحرف العربي في أفريقية قبل وبعد ظهور الإسلام. وكما ذكر المؤلف لقد كانت الفتوحات الاسلامية بداية لنهضة حضارية شاملة أهم ما فيها ظهور مراكز العلم وانتشار التعليم. ولقد كانت غرب أفريقية ولا تزال مرتبطة علمياً بما يحدث بالمغرب ومصر وغيرها حتى الحجاز والشام كما كانت ولا تزال مكان العديد من مراكز تعليم الاسلام وعلومه وقد برز من علمائهـا رجال أفذاذ كما يثبت «الفهرست» وأعاد المؤلف للأذهان ما أشار اليه ابن خلدون عن الصلة بين معرفة علوم اللغة وأهل الشريعة. ويعلق البروفسير عثمان سيد أحمد على هذه الظاهرة بالنسبة للموقف الخاص بعلماء الجهاد ونشاطهم في هذا المجال:

«إن دراسة المخطوطات المثبتة في هذا الفهرست لتوضح بصورة قاطعة صدق قول ابن خلدون والشريعة وما يتصل بها هي الغاية واللغة هي الوسيلة ولقد برع الكثيرون من علماء غربي أفريقية في العلمين. ولينظر من يريد لتآليف أحمد بابا التنبكتي أو الشيخ عثمان بن فودي أو أخيه الشيخ عبد الله بن فودي أو ابنه السلطان محمد بل عليهم جميعاً رحمة الله ورضوانه أو كتابات الشيخ الوزير جنيد بن محمد البخاري أمد الله في عمره وأرضاه.

الملاحظ أيضاً أن اللغة العربية المكتوبة بها هذه المخطوطات هي لغة علماء وفقهاء ولكن بها ـ عند أبناء فودي على الخصوص ـ جدة وبلاغة وحياة. بل إن ما بلغته الكتابة العربية في عصرهم يجعل فترتهم من أهم فترات ازدهار الكتابة العربية في وقت كانت فيه الكتابة العربية في العالم العربي في فترة تقليد وركود.»[٧].

ملاحظات وتعليقات عامة عن «الفهرست».

(١) يجدر بنا بادىء ذي بدء الأشادة بهذا الجهد القيم الذي بذله الأستاذ الدكتور عثمان سيد أحمد في إعداد هذا «الفهرست» بصورة علمية منهجية لموضوع له أبعاد كبيرة ومهمة بالنسبة لمستقبل الدراسات العربية الاسلامية في أفريقية. ولعل من أبرز التحديات التي تواجه الباحثين من المؤرخين خاصة والمهتمين بدراسة التراث الاسلامي الأفريقي بصفة عامة ـ ندرة المادة المكتوبة بأقلام المسلمين وغلبة المصادر التي كتبها النصاري من مبشرين ومستشرقين وغيرهم من الأوربيين. ان هذا «الفهرست» سيكون بلا أدنى شك هادياً ومرشداً للدارسين والباحثين وليس في مجال الثقافة العربية والأفريقية فحسب بل التراث الاسلامي بصفة عامة.

(٢) إن المتأمل في هذه المؤلفات التي تضمنها «الفهرست» يخرج بفوائد كثيرة. فقد احتوى على معلومات مفيدة وقيمة تنعكس من عناوين المخطوطات ومبثوثة في ثناياها وبوسع القارىء استخلاصها من الأعمال اليسيرة التي تم تحقيقها ونشرها في الأونة الأخيرة فإذا اتخذنا فترة الجهاد والخلافة «العثمانية الصكتية» كمثال نجد أنفسنا أمام علماء ومفكرين أفذاذ كما يثبت «الفهرست». فالشيخ عثمان بن فودي (المتوفى ١٨١٧) وأخوه الشيخ عبد الله فودي (المتوفى ١٨٢٩) وابنه السلطان محمد بل (المتوفى ١٨٣٧) من أوفر علماء المسلمين تأليفاً ومن أخصبهم انتاجاً في العصر الحديث. فهم بلاشك نمط متميز من علماء المسلمين المتعدد الثقافات والآخذ من كل علم بطرف وهم فوق كل ذلك من النابهين من علماء السنة الذين أسهموا بالاجتهاد في علوم الدين والشريعة.

ويحدثنا عثمان سيد أحمد في بحث آخر بأن للشيخ عثمان أكثر

من مائة مؤلف وللشيخ عبدالله ستون مؤلفاً أما محمد بل فقد رصدت له حوالي ثمانية وسبعين مؤلفاً[٨]. وعلى الرغم من أعباء الحكم وادارة الدولة فقد خصصوا حيزاً كبيراً من وقتهم للتأليف مما جعل عصرهم من أهم فترات ازدهار الكتابة في المسائل العربية والاسلامية وقد كان منهجهم شمولياً وموسوعياً لم يقف عند العلوم القرآنية والتفسير والحديث والفقه والأصول وإنما امتد نشاطهم العلمي إلى اللغة والتاريخ والتراجم والأدب من نثر وشعر كما هو واضح من «الفهرست» ولكنهم نهلوا من منبع ومعين واحد أصله القرآن والسنة.

(٣) ومن المعالم الفكرية البارزة التي يعكسها هذا التراث كما يتضح من الفهرست الاتجاه السلفي الواضح وبخاصة في فترة الجهاد التي اجتاحت غرب أفريقية منذ مطلع القرن الثالث عشر للهجرة والتي تميزت بصحوة اسلامية بلغت من القوة في خلال قرن واحد، حداً يفوق ما بلغته الموجة الاسلامية الأولى في خدمة الاسلام والثقافة الاسلامية في غرب أفريقية خلال سبعة قرون. وترجع أهمية هذا الموضوع إلى حقيقة واضحة وهي أن الدعوة السلفية ـ كدعوة اتخذت ـ إصلاح الوضع الديني للمسلمين ـ امتدت آثارها الى مناطق متعددة من بلاد المسلمين، وتركت أثراً كبيراً في العودة بالمسلمين إلى الدين القويم عن طريق اصلاح العبادة الاسلامية وتخليصها مما تسرب إليها من البدع والخرافات والوثنيات التي تفشت في البلاد. وقد ناسبت الدعوة السلفية بأفكارها الوضع الاسلامي في غرب أفريقيا حيث تأثر المسلمون بالبيئة الوثنية ومعطياتها[٩]. ولعل خير ما نستشهد به في هذا المقام ما ذكره الشيخ محمد بل بن الشيخ عثمان بن فودي في كتابه المثبت بالفهرست: **انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور** والذي أرخ فيه لجهاد والده الشيخ عثمان اذ يقول:

«وقد وجد في هذه البلاد (بلاد الحوصة) من أنواع الكفر والفسوق والعصيان أموراً فظيعة، وأهوالاً شنيعة، طبقت هذه البلاد وملأتها حتى لا يكاد يوجد في هذه البلاد من صح إيمانه وتعبده إلاّ النادر القليل، ولا يوجد في غالبهم من يعرف التوحيد، ويحسن الوضوء والصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات، فمنهم كفار يعبدون الأحجار والجن، ويصرحون على أنفسهم بالكفر، ولا يصومون، ولا يزكون، ويسبون الله ويقولون في حقه ما لا يليق في جنابه الأعلى. وهؤلاء غالباً عامة السودان الذين يقال لهم: «ما غنداوا»، وبعض عتاة الفلاتيين والتوارك. ومنهم قوم يقرون بالتوحيد ويصلون ويصومون ويزكون من غير استكمال شروط، بل يأتون في ذلك كله بالرسم والعلامة، مع أنهم يخلطون هذه الأعمال بالكفر الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وبعضهم من قبل نفسه، ..... وغالب ملوك هذه البلاد وجنودهم وأطبائهم من هذا القبيل ومنهم قوم يقرون بالتوحيد، ويصلون ويزكون من غير استكمال شروط كما مر، مع أنهم مقيمون على عوائد ردية وبدع شيطانية، ومنهم المنهمكون في المعاصي الجاهلية متآنسون بها، جارون فيها مجرى المباحات، حتى كأنها لم يرد فيها نهي، وهي خصال كثيرة أقاموا عليها، وهؤلاء هم أكثر عامة الفلاتيين، وبعض مسلمي السودانيين (الحوصة). إذ قد مر أن غالبهم كفار بالأصالة وبعضهم بالتخليط. ومنهم قوم عارفون بالتوحيد كما ينبغي، محسنون للوضوء والغسل والصلاة والزكاة والصيام بذلك كما ينبغي، وهؤلاء النادر القليل.»[١٠].

(٤) إن هذا «الفهرست» معين لا ينضب للباحثين في مجال الدراسات التاريخية في أفريقية الغربية فضلاً عن تناوله لموضوعات ـ كما تشير لها عناوين المخطوطات ـ ذات أهمية كبيرة في مجال التشريع والفقه والثقافة العربية الاسلامية. فكتاب الشيخ محمد بل «انفاق الميسور» لم يؤرخ لجهاد الشيخ عثمان فحسب وانما شمل كل المجموعات التي اشتركت في الجهاد وذلك بتسجيل الروايات الشفهية المتعلقة بتواريخ هذه الشعوب ولم تكن وقفاً على الفلاني أو الهوسا وإنما شملت معظم «بلاد التكرور» وقد اهتم ـ مثلاً ـ لتدوين معلومات مفيدة عن بلاد اليوربا (Yoruba) وقد كان المصدر الذي اعتمد عليه أحد المؤلفات المحلية وعنوانه «**أزهار الربا في تاريخ يوربا**»[١١]. هذه النظرة والمعالجة الشاملة في كتابة التاريخ تنعكس في مؤلفات الشيخ عثمان ابن فودي وأخيه عبدالله وابنه محمد بل في انتمائهم لكافة «بلاد السودان» والذي يتردد صداه في الأسلوب وطريقة تعبيرهم عنه في لفظ «بلادنا السودانية» الذي يتردد في كتاباتهم[١٢]. وهذا التراث الضخم المتمثل في هذه المخطوطات التي احتواها هذا

« الفهرست » قد حظي باهتمام كبير في أوساط الباحثين في الدراسات الأفريقية في الجامعات الأفريقية والأوربية والدليل على ذلك هو الرسائل الجامعية التي تم تسجيلها لنيل درجات الماجستير والدكتوراه والتي كان محورها دراسة وتحقيق هذه المخطوطات كما تم نشر وترجمة بعضها للغات الأوربية[١٣].

إن الجهد الرائع الذي قام به هذا النفر من العلماء الأفارقة المسلمين إسهام كبير في مجال مصادر الدراسات التاريخية المتعلقة بالقارة وفتح جديد للمهتمين بإعادة كتابة التاريخ الأفريقي وتصحيح مساره ومناهجه التي وضعتها المدرسة الأوربية والعقلية الاستعمارية التي كانت ولا تزال مهيمنة في بعض معاهدنا ومؤسساتنا التعليمية.

(٥) ولعل من أهم المعالم الفكرية التي يمكن استخلاصها من عناوين المخطوطات والتي يجدر الإشارة إليها الأسلوب والمنهج الذي اتبعه العلماء الأفارقة في مخاطبة أتباعهم وتلاميذهم. أن المنهج التربوي والتعليمي القائم على المباديء الاسلامية السمحة بأن الاسلام دين إقناع وحجة وبرهان. **« أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن »** [١٤]

أروع ما يتضح في الأسلوب التربوي الودود الذي أستنه الشيخ عثمان بن فودي في تعليم أتباعه. والمتأمل للفهرست يمكنه أن يلمس هذا التقليد الذي يوضح بجلاء مسار الدعوة الاسلامية في غرب أفريقية التي تبنت منهجاً تعليمياً رشيداً بأسلوب الدعوة الهينة والكلمة اللينة الرقيقة ومن حق الشيخ عثمان بن فودي علينا أن نستشهد بالبعض من مؤلفاته التي أثبتها « الفهرست » والتي يتضح صداها ومغزاها التعليمي من عناوين المخطوطات الآتية:

(١) **« إرشاد الأمة إلى تيسير الملة »**[١٥].

(٢) **« إرشاد أهل التفريط والافراط إلى سواء الصراط »**[١٦]

(٣) **بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية »**[١٧].

(٤) **« تبشير الأمة الأحدية لبيان بعض المناقب القادرية »**[١٨].

(٥) **« تحذير الاخوان من إدعاء المهدية الموعودة آخر الزمان »**[١٩].

(٦) **« تعليم الاخوان بالأمور التي كفرّنا بها ملوك السودان »**[٢٠].

(٧) **« تنبيه الاخوان على أحوال أرض السوادن »**[٢١].

(٨) **« سراج الاخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان »**[٢٢].

(٩) **« نجم الاخوان يهتدون به بإذن الله في أمور الزمان »**[٢٣].

(١٠) **« نصائح الأمة المحمدية لبيان حكم الفرق الشيطانية التي ظهرت في بلادنا السودانية »**[٢٤]

(١١) **« نصيحة أهل الزمان لأهل السودان من الأعراب والأعجام في جميع البلدان. »**[٢٥]

إن النظرة الفاحصة السريعة لعناوين هذه المخطوطات توضح ما نرمي إليه في استقصاء وتحليل المنهج التربوي الاسلامي في مؤلفات الشيخ عثمان ولنتأمل ذلك في مخاطبته « الأمة » و « الاخوان » والأسلوب التعليمي المتمثل في تبليغ الدعوة التي قامت تنادي بكتاب الله وسنة رسوله ولنلاحظ أيضاً الوسائل التي اتبعت لتحقيق هذه الغاية عن طريق أل « أرشاد »، « بيان »، « تبشير »، « تحذير »، « تنبيه »، « سراج »، « نجم »، « نصائح » و « نصيحة ».

إن النهضة التعليمية التي شهدها هذا الجزء من أفريقيا لم تكن وقفاً على الرجال فحسب بل شملت قطاعاً هاماً ومؤثراً في المجتمع فأقام الشيخ عثمان وأتباعه حلقات الدرس لتعليم النساء من خلف حجاب تمشياً مع التقاليد الاسلامية « والفهرست » يلقي الضوء على هذه الظاهرة الطيبة، في الاهتمام بتبصير المرأة بتعاليم الدين الحنيف. فقد أفرد الشيخ عثمان مؤلفاً مخطوطاً عنوانه:

« تنبيه الاخوان على جواز اتخاذ المجلس لأجل تعليم النسوان علم فروض الأعيان من دين الله تعالى الرحمن »[٢٦]

(٦) إن هذا التراث العربي الاسلامي المتمثل في المخطوطات العربية والتي أثبتها هذا « الفهرست » القيم والذي شمل المؤلفات المحلية في غرب أفريقيا لجدير بالاهتمام كمصدر للدراسات

الانسانية بصفة عامة وكتراث أفريقي إسلامي أصيل يدحض بصورة علمية موثقة آراء ومفتريات بعض المستشرقين الذين أنكروا في أسلوب مجحف ومتعصب مجرد وجود ما يسمى بالتاريخ الأفريقي دع عنك هذا التراث الانساني الهائل الذي تعرضنا له بالعرض والتحليل والذي كان من بعض ثمراته هذا «الفهرست» الذي يمثل بحق باقة رائعة للثقافة العربية الأفريقية(٢٧). والحقيقة الجوهرية التي أبرزها هذا العمل هي أن هؤلاء العلماء المسلمين الأفارقة قد أخذوا زمام المبادرة وأسهموا في إثراء التراث الاسلامي من واقع ظروفهم وبيئاتهم وتطورهم السياسي والاجتماعي. إن أروع الانجازات التي حققوها في هذا المجال بحق هو اهتمامهم باللغة العربية وآدابها التي أعانتهم في تدوين هذه المخطوطات واللغات الأخرى التي كتبت بالحروف العربية كالهوسا والفلاني والكنوري.

هذا التطور الفكري والثقافي قد أقلق مضاجع الاستعمار وأدواته الثقافية المتمثلة في الهيئات التنصيرية وبعض المستشرقين الذين كانوا يدركون خطورة هذه الحقائق ودورها في توحيد شعوب أفريقية تحت راية الاسلام من أجل التحرر والحفاظ على كيانهم وتراثهم. ولهذا قد عملت طلائع الغزو الفكري الاستعماري على طمس هذه الحقائق عن وعي كامل وبصيرة تامة إمّا لتثبيت دعائم الاستعمار وإمّا للابقاء على حالة الاستعمار بعد جلاء جيوشه. وقد كان السلاح البتار الذي أشهرته هذه القوى حرب اللغة العربية بكافة الوسائل والأساليب. وقد أحسن البروفسير عثمان سيد أحمد وأجاد في تناوله هذه السياسة وإيضاح مراميها وأهدافها في قوله:

« نحن في سودان وادي النيل وسودان غربي أفريقية وشرقيها ووسطها في نيجريا وفي تشاد، في تنزانيا وفي الصومال بل في أندونيسيا والفلبين نعرف كيف حوربت هذه اللغة وهذا الحرف وهما في حالة انتشار لا انحسار مع الغزو الاستعماري القديم والحديث المثقل بصليبية شرسة تترصد وترصد الأموال والرجال والعتاد وتزحف تحت واجهات شتى وأسماء مختلفة رافعة شعارات العون والتحديث والتعليم ضامرة التفتيت والاضعاف والحد من رباط يوحد ويآلف ويدفع الناس إلى الأمام. إن تعلم اللغات الأجنبية لا يعنى إغفال اللغة العربية إن كانت هي لغة الناس أو لغة تراث الناس. وليس صحيحاً أن الأبجدية اللاتينية أنسب للغات الأفريقية من الأبجدية العربية فالشاهد أن أصوات العربية الأساسية والفرعية و حيازها أكثر وأوسع من رصيفاتها في اللاتينية التي تختلف في الانجليزية منها في الفرنسية أو الألمانية أو الأسبانية. ثم أن العربية بكلماتها وقواعدها وذوقها وتراثها أسبق وأغنى وأعرق وما شاء الله كان. وقد تم انتشار العربية وحروفها في ظروف بعيدة عن القهر أو الاستعمار أو الفرض.» (٢٨).

(٧) هذه بعض الملاحظات والتعليقات العامة حول «فهرست المخطوطات العربية» وفي يقيني أنه قد لفت الأنظار بصورة ملحة ومستعجلة للاهتمام بالتوثيق وسد النقص الكبير في الضبط البيليوغرافي وجمع المخطوطات العربية في مناطق أفريقية أخـــرى وبخاصة شرقها ووسطها. إن التحدي الذي يفرض نفسه على الباحثين والمهتمين بالتراث العربي الاسلامي يقتضي التركيز وبذل جهود مماثلة في تلك المنطقة التي شهدت قيام الكثير من الإمارات الاسلامية التي ازدهرت فيها الثقافات العربية والسواحلية ذات الطابع الاسلامي المتميز في المدن والجزر الساحلية في زنجبار وممباسا ولامو وبمبا «الجزيرة الخضراء» وجزر القمر وملاقاشي(٢٩).

(٨) وختاماً إن هذا الجهد الكبير الذي بذله عثمان سيد أحمد في إعداد هذا «الفهرست» للمخطوطات العربية في غرب أفريقية سيقابل بالشكر والعرفان من القراء والباحثين والمهتمين بالتراث الاسلامي بصفة عامة والعاملين في حقل الدراسات الأفريقية بوجه خاص.

الحـــواشي والتعليقـــات

(١) من البحوث التي أسهم بها عثمان سيد أحمد في مجال الدراسات الأفريقية الاسلامية أود أن أشير هنا إلى بحثين وجدت فيهما فائدة جمة في إلقاء الضوء على هذا « الفهرست » وقد تقدم بالأول في المؤتمر العالمي الأول للمؤرخين الأفارقة والمنعقد في دار السلام في أكتوبر عام ١٩٦٥ وقد كان عن التقليد التأريخي للإسلام في أفريقية بالأنجليزية وعنوان :

Uthman S. Ismail: "The Historiographical Tradition of African Islam''

أنظـر :

T.O. Ranger, (edit) Emerging Themes of African History, Proceedings of The International Congress of African Historians (Dar Es Salaam, 1965) PP. 7—13.

أما البحث الثاني فهو عبارة عن تأملات في التاريخ الفكري والثقافي للجهاد والخلافة في غرب أفريقية وكان قد تقدم به ضمن حلقات البحث (Seminars) التي كانت تقام في قسم التاريخ بجامعة أحمد بلو في زاريا وكانو في شمال نيجريا وهو بالانجليزية أيضاً وعنوانه :

Uthman S. Ismail: **Towards An Intellectual History: Some Reflections On The Literature of The Jihad And The Caliphate. 1774 — 1903.**

(٢) هنالك عدد من الأساتذة من النيجريين والسودانيين وغيرهم قد كان لهم قصب السبق في الاهتمام بأمر المخطوطات العربية وقد نوه المؤلف بالدور الطليعي والرائد للأستاذ البروفسير المرحوم عبدالله إسحق الذي تم إهداء « الفهرست » له . وقد ساعده أيضاً من زملائه وطلابه المرحوم البروفسير محمد أحمد الحاج والدكتور مري لاست والدكتور الحاج جنيد بن محمد البخاري وزير صكت والدكتور علي أبو بكر وغيرهم .

(٣) **الفهرست ص ٢٢**

(٤) انظر إسهام أبناء فودي (الشيخ عثمان بن فودي وأخيه عبدالله ابن فودي وأبنه محمد بل) فقد جمعوا بين العلم والدين والسياسة بحسبانهم رجال دولة في الخلافة العثمانية الصكتية .

(٥) من المخطوطات التي أثبتت في **الفهرست** لبعض مؤلفات العلماء المسلمين الآخرين الآتي :

- أرجوزة الولدان في أصول الدين (قصيدة) التي نظمها أبو زكريا يحيى القرطبي الداري . **الفهرست** ص ٢٠
- قصيدتان **البردة** والقصيدة الهمزية « **كيف ترق رقيك الأنبياء** » للبوصيري . **الفهرست** ص ٢٦
- **أرجوزة في فتنة القبور وتحفة الظرفاء ونظم الدرر في علم الأثر** لجلال الدين بن عبدالرحمن السيوطي . **الفهرست** ص ٢٨
- **هداية السالك لمذهب الإمام مالك** لشهاب الدين السيوطي . **الفهرست** ص ٣٢
- **شرح مختصر على السنوسية** لمحمد بن ابراهيم المالكي التلمساني . **الفهرست** ص ٥٨
- **رسالة إلى كرم الله بن الشيخ محمد (عن سقوط الخرطوم) ومنشورة الأحكام** للامام محمد أحمد المهدي (الإمام المهدي السوداني . المنشورات نشرها محمد ابراهيم أبو سليم . الخرطوم) **الفهرست** ص ٥٩
- **المنهج الفريد في معرفة علم التوحيد** لمحمد الوالي ابن سليمان **الفهرست** ص ٦٣

(٦) ـ **الفهرست** ص ٣

(٧) ـ **الفهرست** صفحات ١٣ ، ١٤

(٨) ـ أنظر بحث البروفسير عثمان سيد أحمد :

"Towards An Intellectual History: Some Reflections On The Literature of The Jihad'' P. 2.

(٩) ـ من المخطوطات التي توضح المنهج السلفي ومحاربة البدع نستشهد ببعض ما جاء في هذا **الفهرست** من تأليف الشيخ عثمان بن فودي الآتي :

- **إتباع السنة وترك البدعة** ص ٤٢
- **إحياء اسنة وإخماد البدعة** ص ٤٢

- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** ص ٤٣
- **بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية** ص ٤٥
- **وثيقة الإخوان لتبيين دليلات وجوب إتباع الكتاب والسنة والإجماع ودليل اجتناب البدعة لمن يدين بدين الاسلام** ص ٥٣

(١٠) أنظر محمد بلو : **انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور** (القاهرة ١٩٦٤) صفحات ٥٨ ـ ٦٠

(١١) إن المصطلح (التكرور) كثيراً ما يستعمل في المصادر العربية ويطلق على كافة المسلمين في غرب أفريقيا أما اليوربا (**Yoruba**) فيطلق على مجموعة قبلية كبيرة وعلى الاقليم الذي يقع في جنوب غربي جمهورية نيجريا الحالية. وقد أبرز البروفسير عثمان سيد أحمد هذا المنهج الشمولي والمعالجة الموضوعية في الكتابة التاريخية في أدب الجهاد في بحثه الذي أشرنا إليه في الحواشي ٨،١ أنظر :

'Intellectual History', P. 15.

(١٢) **Ibid**, P. 12

(١٣) ومن الرسائل التي أجيزت لنيل درجات الدكتوراه والماجستير ما يلي :

- **ضياء الحكام** لعبد الله بن محمد بن فودي. تحقيق وترجمة شيخو باموسي. ماجستير جامعة أحمد بلو. طبع زاريا ـ ١٩٥٦
- **إحياء السنة وإخماد البدعة** لعثمان بن محمد بن فودي. تحقيق وترجمة إسماعيل بالفون. دكتوراه جامعة لندن ١٩٦٧
- **بيان وجوب الهجرة على العباد** لعثمان بن محمد بن فودي تحقيق وترجمة فتحي حسن المصري. دكتوراه جامعة أبادن ١٩٦٨
- **أجوبة أسئلة الأمير الحاج أبي عبد الله أبي بكر أسكيا** لمحمد ابن عبدالكريم المغيلي. تحقيق وترجمة J. O. Hunwick دكتوراه جامعة لندن ١٩٧٤.

للمزيد من الدراسة عن إسهام المخطوطات العربية في إثراء البحث التاريخي والدراسات الأفريقية أنظر مقالة :

J. O. Hunwick, 'The Study of Muslim Africa: Retrospect and Prospect'

وذلك ضمن دراسات وبحوث قدمت عن «الدراسات الأفريقية منذ عام ١٩٤٥» أنظر :

Christopher Fyfe, '**African Studies Since 1945** (London 1976) PP. 136 — 155

(١٤) سورة النحل، الآية ١٢٥.
(١٥) **الفهرست** ص ٤٢
(١٦) **الفهرست** ص ٤٢
(١٧) **الفهرست** ص ٤٥
(١٨) **الفهرست** ص ٤٦
(١٩) **الفهرست** ص ٤٦
(٢٠) **الفهرست** ص ٤٦
(٢١) **الفهرست** ص ٤٧
(٢٢) **الفهرست** ص ٤٨
(٢٣) **الفهرست** ص ٥١
(٢٤) **الفهرست** ص ٥١
(٢٥) **الفهرست** ص ٥١
(٢٦) **الفهرست** ص ٤٧ وللمزيد من المعلومات المفيدة عن المنهج التعليمي والتربوي لعلماء الجهاد انظر بحث البروفسير عثمان سيد أحمد المشار إليه في الحواشي (١) و (٨) و (١١) **'Intellectual History'** PP. 1 — 18

(٢٧) ومن الكتابات الغربية التي تتسم بالغرور والقصور والجهل بهذا الرصيد والتراث الهائل الذي أسهم به المسلمون الأفارقة في تدوين تاريخ مجتمعاتهم ما جاء على لسان أحد الأساتذة الكبار في جامعة اكسفورد والذي يؤكد العلاقة الوثيقة بين الاستشراق والاستعمار ودور المؤسسات الأكاديمية في الغرب في تشويه ومسخ صورة المجتمعات الأفريقية وتدلل على النزعة الاستعلائية العنصرية في تناولهم بالدراسة لهذه المجتمعات. يذكر هيوق تريفورروبر أستاذ كرسي التاريخ الحديث في تلك الجامعة الشهيرة ما يلي :

«... لربما يكون في المستقبل بعض التاريخ الأفريقي ولكن وفي هذه اللحظة فلاشيء البتة... هنالك فقط تاريخ الأوربيين في أفريقيا.. وما تبقى ظلام

وليس الظلام موضوعاً للتاريخ» أنظر : Hugh Trevor-Roper, «The Rise of Christian Europe» The Listener (London), 28 November 1963, P.871

والنص الأصلي كالآتي :

«Maybe in the future there will be some African history, but at the moment there is none... There is only the history of Europeans in Africa... The rest is darkness, and darkness is not a subject of history».

وللاحاطة بمفاهيم الدارسين وتصوراتهم ومناهجهم والخلفية التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية أنظر البحثين اللذين قام باعدادهما كل من يوسف فضل حسن وعز الدين عمر موسى للندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع منتدى الفكر العربي في عمان بالأردن تحت عنوان :

«العرب وأفريقيا» والتي نشرت حديثاً في بيروت ١٩٨٤ وقد كان البحثان المشار إليهما كالآتي :

يوسف فضل حسن : «الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية» صفحات ٢٧ — ٤٥.

عز الدين عمر موسى: «الاسلام وأفريقيا» صفحات ٦٧—٨٦.

(٢٨) **الفهرست** ص٦

(٢٩) قد برز في القرن الماضي وأوائل هذا القرن العديد من العلماء الأفارقة والعرب الذين كتبوا الكثير من المؤلفات والمخطوطات باللغة العربية والسواحيلية في شتى الموضوعات المتعلقة بالتراث الاسلامي في شرق أفريقيا والذي لا يزال مهملاً وينتظر الإهتمام بجمعه والعناية بتحقيقه ودراسته. ومن العلماء الذين وردت أسماؤهم في المصادر والمراجع الأوربية والقليل النادر الذي وصلنا بالعربية تلمع بعض الأسماء من أمثال الشيخ محيى الدين بن شيخ ابن عبدالله القحطاني (١٧٩٠ — ١٨٧٩) وعلي بن خميس بن سالم البرواني (١٨٥٢ — ١٨٨٦) وسيد منصب بن علي (١٨٦٣ — ١٩٢٧) والشيخ علي بن عبدالله بن نافع المزروعي (١٨٢٥ — ١٨٩٤) والشيخ عبد العزيز الأموي (١٨٣٢ — ١٨٩٦) والشيخ عبدالله بن محمد باكثير الكندي (١٨٦٤ — ١٩٢٥) والشيخ أحمد بن سميط (١٨٦١ — ١٩٢٥).

ولعل أفضل مقدمة تلقي الضوء على دور هؤلاء العلماء الريادي في الدعوة الاسلامية والإسهام بالتأليف في حقل العلوم القرآنية البحث القيم الذي كتبه ب. ج مارتن عن بعض العلماء في زنجبار وشرق أفريقية في القرن التاسع عشر وعنوانه:

B. G. Martin, «Notes on Some members of the learned classes of Zanzibar and East Africa in the Nineteenth Century», **The International Journal of African Studies**, Vol IV, Part 3, PP. 525-545.

ومن الدراسات المتخصصة التي تناولت الشعب السواحيلي في الساحل الكيني وثقافته الأفريقية الاسلامية تلك التي أسهم بها أحمد عيضه سالم الأستاذ بقسم التاريخ بجامعة نيروبي وكتابه بعنوان:

A. I. Salim:

The Swahili - Speaking Peoples of Kenya's Coast 1895 — 1965 (Nairobi, 1973).